التصوف الاسلامى

يبرأ من الوحدة والحلول والاتحاد

للأستاذ احمد السيد مجاهد

قرأت فى مجلة الاسلام والتصوف للسيد التفتازانى بحثا يقول فيه بالوحدة لابن عربى ، والحلول والاتحاد للحلاج والبسطامى ، فهالنى ذلك ، فتسلمت بعض كتب المتقدمين علنى أجد ما يثبت قول السيد أو يضحده ، فوجدت العلماء العاملين ، أهل الصدق واليقين ، من الأعلام المحققين يقولون :

الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى فيلسوف صوفى اصطنع أساليب الصوفية ورموزهم وأشاراتهم للتعبير عن فلسفته وله عذره ككل صوفى فهو يخاطب بأسلوبه أصحاب الذوق والمواجيد ، لا أصحاب الفكر والنظر ولا يصدر فى كتبه عن تفكير بل عن كشف والهام . وما نطق به فهو من الفتوح الذى يفتح الله به على الخاصة من عباده فهو دائما يقابل فى كلامه بين العقل الذى هو لسان الظاهر والذوق الذى هو لسان الباطن . والمعروف عند الصوفية أنهم قوم لايخوضون فيما يخوض فيه الناس من مسائل علم الظاهر وانما يتكلمون بلسان الرمز والاشارة . وذلك اما ضنا بما يقولون على من ليسوا أهلا له واما لأن لغة العموم لا تفى بالتعبير عن معانيهم وما يحسونه من أذواقهم ومواجيدهم فيما يرمزون اليه من حقائق علم الباطن الذى تلقوه وراثة عن النبى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم . وهذه الحقائق لا يثتقل بفهمها عقل ولا بالتعبير عنها لغة . لذا لزم الحذر فى الحكم على أقوالهم والأخذ بظاهرها وهو غير المراد . وقد نصح بعض العارفين الناس بعدم مطالعة كتب بعض الصوفية وخاصة كتب الشيخ الاكبر : لا تزهيدا ولا انكارا ولكن طلبا للسلامة وصونا للصوفية من أن يتجنى عليهم من ليس منهم .

ومن أمثلة ذلك ما يأتى :

ذكر الشيخ عبد الله بن سعد اليافعى اليمنى أن بعض العارفين كان يقرأ عليه كلام الشيخ الأكبر . ويشرحه . فلما حضرته الوفاة نهى عن مطالعته وقال : انكم لا تفهمون كلامه .

وذكر الشعرانى فى اليواقيت والجواهر أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان يقول ما وقع انكار من بعضهم على الشيخ ابن عربى ألا رفقا بضعفاء الفقهاء الذين ليس لهم نصيب من أحوال الفقراء خوفا من أن يفهموا من كلام الشيخ أمرا لا يوافق الشرع فيضلوا . ولو أنهم صحبوا الفقراء لعرفوا مصطلحهم ولأمنوا من مخالفة الشريعة .

وقال شيخ الاسلام سراج الدين البلقينى : أياكم والانكار على شىء من كلام الشيخ محيى الدين فانه رحمه الله لما خاض فى بحار المعرفة وتحقيق

الحقائق عبر فى أواخر عمره فى كتبه بما لا يخفى على من هو فى درجته من أهل الاشارات ثم جاء من بعده قوم عمى فغلطوه بل كفروه لعدم معرفتهم باصطلاحاته ولا سألوا من يسلك بهم الى ايضاحه وذلك أن كلام الشيخ رضى الله عنه ، تحته رموز وروابط واشارات وضوابط وحذف اضافات هى فى علمه وعلم أمثاله معلومة وعند غيرهم من الجهال مجهولة ٠٠ وكان الشيخ ابن عربى فى عباراته يشير الى معنيين ظاهر وباطن كما كان دائما على استعداد لأن ينتقل بقرائه من لسان الظاهر الى لسان الباطن وبالعكس ٠

سئل مرة عما يعنيه بقوله :

يا من يرانى ولا أراه　　كم ذا أراه ولا يرانى

مشيرا بذلك الى مذهبه ٠ فأجاب من فوره يقول :

يا من يرانى مجرما　　ولا أراه آخذا
كم ذا أراه منعما　　ولا يرانى لائذا

وبالجملة فالشيخ الأكبر له عذره فان لغة المنطق قاصرة عن تعبير تلك المعانى الذوقية التى يدركها الصوفى فى أحوال وجده فليس لديه الا تلك الاشارة والرمز ولغة الخيال والعاطفة يومىء بها الى تلك المعانى التى لا يدركها على حقيقتها الا من ذاق مذاق القوم وجرب أحوالهم ٠

أما ساداتنا : البسطامى ، والحلاج والجنيد وابن الفارض وأمثالهم رضوان الله عليهم فعقيدتهم التوحيد الخالص الذى لا تشوبه شائبة تقص من الاتحاد أو الحلول ٠ غير انهم قوم فنوا فى حبهم لله عن أنفسهم وعن كل ما سوى الله تعالى فلم يشاهدوا فى الوجود غيره ، وهذا مقام المشاهدة ، المعبر عنه بقوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم « أعبد الله كأنك تراه » وكقول بعضهم حينما غلبت عليه الحال :

فما نظرت عينى الى غير وجهه
ولا سمعت أذنى خلاف كلامه

دالا بذلك على كمال قربه من الله تعالى ، لذلك كان بعضهم يغلب عليه فرط الوجد ، وفيض العاطفة ، أو شطحات الجذب ، فيصيح بكلام لا يفهمه غيره ، أو من فى درجته ، كما صاح الحلاج فى حالة من أحوال جذبه بقوله : « أنا الحق » ٠٠ وكذا ابن الفارض الذى أفناه حبه لمحبوبه عن نفسه ، فلم يشعر الا بمحبوبه ، فقال :

متى حلت عن قول أناهى أو أقل
وحاشى لمثلى انها فى حلت

فهؤلاء الرجال وأمثالهم عقيدتهم التوحيد الخالص وايمانهم الايمان الكامل ، لا ينقصهم سوى عدم التعرض والطعن فى علمهم وايمانهم ، وقربهم من ربهم ، ممن ليس له ادراك بأحوالهم ٠

وفقنا الله الى احترام المؤمنين من أسلافنا ، انه نعم المجيب ٠٠